مقاربات عرفانيَّة في «منازل» تيريزا الأفيليَّة

الدكتور سميح دغيم°

هناك تساؤل لا بُدَّ من طرحه بدايةً:

لماذا هذا الاهتمام اليوم بالمسائل الروحانيَّة والعرفانيَّة في زمنٍ بدا للبعض وكأنَّه لم يعد يتقبَّل هكذا مواضيع، هي ليست من اهتمامات الإنسان المعاصر، الذي يسعى في زمن الوضعيَّة هذا إلى التوكيد على ذاته من خلال عالم الأعيان وليس من خلال عالم الغيبيَّات. أو، كما نقول في الاصطلاح الفلسفيّ، من خلال التركيز على القُدرِيات وليس على الأيسيَّات؟

إنَّ المسألة برمتها ترتدّ إلى التركيز على إنسانيَّة الإنسان من خلال وجوده المتحقِّق عينيًا ضمن كيان خاصّ وثبوت راهن في هذا العالم. فهل يتعارض هذا الوجود العينيّ، بما يفترض من اقتدارات اختياريَّة ومعرفيَّة، مع الأصل الروحيّ الذي فيه خلق وإليه يعود؟

في الفكر الحديث، هناك مناخ يرفض اعتبار الإنسان عقلاً خالصًا به يتعامل مع وجوده في هذا العالم، وهو يفرد للإرادة الإنسانيَّة فاعليَّة خاصَّة ترتقي بها إلى حدّ المماثلة بينها وبين خالقها. هذا ما درجت عليه فلسفة القِيَم في

° أستاذ الفكر الاجتماعيّ والسياسيّ الجامعة اللبنانيَّة (معهد العلوم الاجتماعيَّة). من مؤلَّفاته: فلسفة القدر في فكر المعتزلة، تاريخ العلوم عند العرب (بالاشتراك مع آخرين)، ومقالات عن المعتزلة والحرِّيَّة . .

أمَّا المقال الراهن فهو مداخلة المؤلِّف في أثناء الندوة التي أقامها المركز الثقافيّ الإسبانيّ ببيروت، في ١٣/١٢/١٩٩١، لمناسبة صدور كتاب المنازل مترجمًا إلى العربيَّة بقلم الأستاذ أنطوان سعيد خاطر.

الغرب متمثله بعض أعلامها الذين يصيب ... ص أسمهم، مثل ماكس شيلر، لُوي لافيل، وريمون رويه، وبعض الوجوديّين الوطنيّين أمثال سُورين كِير كيجارد، وكارل ياسْبِرز.

بموازاة هذا كلّه، هناك في الشرق والغرب معًا اهتمام عظيم بموضوع العرفان، مرتكزاته الأساسيّة الرغبة في الاندفاع نحو فهم المحقّ لتعاليم الرسالات الدينيّة خصوصًا المسيحيّة التي ما زالت بعض مضامين تعاليمها تزداد امتناعًا عن المدارك. إضافة إلى القلق الذي بدأ يساور النفوس حول تهافت نظام القِيَم المتجانس في هذا العالم[1].

ومع افتقاد عصرنا الراهن إلى العرفان الأصيل وإلى عرفانيّين أصيلين منجذبين إلى أوضاعهم الروحيّة، نجد بالمقابل اهتمامًا من الباحثين بإبراز معالم أولئك الذين رغبوا في الرؤية العرفانيّة لتعزيز أوضاعهم الروحيّة على مختلف دياناتهم.

صحيح أنّه، منذ دفع الحلاّج حياته ثمنا لاندفاعه غير الحكيم باتت المسألة العرفانيّة لعبة خطرة، ليس فقط في الديانة الإسلاميّة بل في سائر الديانات المنزلة. إنّ تهمة القول بالحلول والاتّحاد أو وحدة الوجود، أوجبت في الحقيقة إيجاد منحى بديل لا يرقى إلى مستوى النظريّة يكون أكثر تمشّيًا مع التعاليم الدينيّة. على أنّ الأمر لا يبدو متوازنًا في جميع الديانات. فليس هو في المسيحيّة كما في الإسلام. وقد رأينا كيف أنّ الحلاّج اتّخذ من المسيح مثالاً للإنسان المقدّس الذي تجسّد فيه الله، ما وجده البعض يتعارض مع التوحيد والتنزيه الإسلاميّين. فهل الناسوت في المسيح هو الذي يضبط إيقاع العرفانيّين المسيحيّين ويجعل بالتالي من حالات الحلول والاتّحاد والفناء مقبولة في المسيحيّة؟

إنّ في الكيان المادّيّ الطبيعيّ للإنسان سِمات من الخالق تجعله محلاً للروح باستطاعته من خلاله أن يلعب دورًا إيجابيًا في سياق الاختبار الروحيّ. أمّا الروح فهي بالضبط موضوع العمل الروحيّ الذي من خلاله يتمّ لها عبر نعم الطبيعة اللاهوتيّة في المسيح أن تتّحد بالإله.

(١) راجع هنا كتاب سيّد حسين نصر، الصوفيّة بين الأمس واليوم، ترجمة كمال بازجي، الدار المتحدة للنشر، بيروت، ١٩٧٥، ص ١٣.

هذا هو الإطار الذي أحببت أن أضع فيه مداخلتي هذه عن منازل تيريزا الأفيليّة. إنّها عرفانيّة مسيحيّة لا تزلق إلى مخاطر النظريّات التيوصوفيّة، حصوصًا بعد أن وجدت في طبيعة المسيح سندًا قويًا لتجليّات قد يصعب تمثلها في باقي الديانات المنزلة.

١ ـ المقاربة الأولى: الرمزيّة

ـ ليست الرموز من المحسّنات البلاغيّة، ولا تنساق ضمن الشعوذات الفكريّة، ولكنّها في الحقيقة صُوَر مرتبطة ارتباطًا وثيقًا بالحالات الشعريّة التي تنمّ عنها. إنّها إسقاط لشفافيّة الأمور الروحانيّة في كثافة الحسّ، متوازنة في ذلك مع الإنسان في وضعه الساقط كي يستخدم ذلك في التعبير المسيحيّ.

بهذا الاعتبار وليس بغيره علينا أن ننظر إلى رموز تيريزا الأفيليّة (القصر ـ القران ـ الخطوبة ـ دودة القزّ ـ الفراشة ـ الشرنقة). إنّها أيقونات في الظاهر خاضعة لاعتبارات الزمان والمكان، لكنّها ذات مضمون داخليّ هو موضوع للتأمّل ووسيلة للعبور إلى ما وراء المحسوس. إنّها بسيطة، سهلة، عفويّة، لا تنمّ عن نسق منهجيّ مقصود بل تنساب في وعي منجذب، الأمه كامنة في محدوديّة وملموسيّة وجودنا الساقط، وخلاصه كامن في مسالك الانبعاث الروحيّ. وبين الآلام والخلاص مسالك عدّة لها ترميزها المناسب (منازل القصر) ولها دركاتها ودرجاتها، خطاياها ونعميها؛ إنّها مسيرة تخطّي المنازل الواحد تلو الآخر. ورمزيّة تيريزا الأفيلية هي رمزيّة دلاليّة تعبيريّة قائمة على رموز اصطلاحيّة من وضع الإنسان ولا تنسلخ في مفاهيمها عمّا ضمنه إيّاها هو. وهي بهذا الوصف لا ترقى إلى مستوى الرموز الثابتة في الطبيعة ذات المضامين الدالّة على حقائق الأشياء في جوهرها، كالسماء والشمس وغيرها ممّا استعمله بعض أهل العرفان. ولسنا هنا لنقلّل من أهمّيّة الرموز عند تيريزا، بقدر ما نريد أن نؤكّد أنّها في تعبيرها عن تجربتها الروحيّة التزمت، عن قصد أو عن غير قصد، مسلكًا لا ينمّ عن أنّها تريد الارتقاء بهذه التجربة إلى مستوى نظريّة متكاملة لها أبعادها التعبيريّة الممنهجة وتجليّاتها المؤطرة في مفاهيم عرفانيّة. وأنّى لها ذلك وهي التي تكتب بأمر الطاعة من مرشديها، وتحت سيف

التفتيش من رهبنتها. أصف لو دقّقت كلّه أن قصورها في الاطّلاع على تجارب المتقدّمين عليها زمانيًا، والذي ربّما أبقى تجربتها الروحيّة بمنأى عن كثير من المداخلات غير المستحبّة على صعيد التعاليم المسيحيّة، هو الذي جعل لها هذه الخصوصيّة على صعيد استعمال الرموز، بحيث لم يواز قصرها الباطنيّ هيكل النور للسهرورديّ ولا هيكل الجسد للحلاّج، كما لم تواز فراشتها طير السيمورغ لفريد الدين العطّار.

إنّها رمزيّة ذات أبعاد عيانيّة لا تتوخّى الغموض والإبهام ولا تحاول أن تتخطّى مدارك البشر وطبائعهم، بل تحاول أن تضمن هذه الأعيان دلالات تشبيهيّة منبّهة إلى أنّ الأمر لا يتعدّى ما نضفيه نحن على هذه الدلالات. أمّا إذا كانت إضفاءاتنا إدراكيّة استدلاليّة بقي القصر قصرًا في الامتداد والفراشة فراشة في الطبيعة، أمّا إذا كانت إضفاءاتنا الجذابة عرفانيّة تبعّدت في القصر أبعاد تتخطّى حدود الامتداد لترقى إلى مستوى اللامتناهي.

٢ - المقاربة الثانية: الاتّحاد والانخطاف

إنّ كلام تيريزا الأفيليّة في حالات الاتّحاد والانخطاف، بالإضافة إلى كونه نتيجة صرخة جذب، فهو يعبّر عن خطاب لاهوتيّ لازم عن إيمان يسري في أعماق الوعي حول الطبيعة الثنائيّة للإنسان مثالها الإله المتجسّد في المسيح.

فهل يكون المسيح بهذا الاعتبار هو الوسيط بين الراغب في الفناء في حضن الألوهيّة وبين الإله، وبالتالي لا بدّ من المرور بهذا الوسيط كما يقول عبد الرحمن بدوي؟

في الحقيقة انّ هذا ما يضبط إيقاع حالات الجذب عند تيريزا وهي التي تستلهم تجربتها الروحيّة من حياة وآلام السيّد المسيح ومن تعاليم الإنجيل الحاضرة دومًا في وعيها.

والاتّحاد بالإله غاية كلّ مسيحيّ في مجاهداته، وهو يستتبع فناءً ناسوتيًا ليس بمعنى الفناء النيرفانيّ في البوذيّة والذي يقضي على الفرديّة والذاتيّات الشخصيّة فقط، بل إنّ هذا الفناء الناسوتيّ يتبعه بقاء في ذات الله هو ما نسمّيه

اتِّحادًا والذي هو نهاية مراحل السير ومقدّمة لحياة جديدة. فبعد أن كنّا نسير نحو الله بتغيير أحوالنا الروحيّة عن طريق إخماد الميول والرغبات والإرادات، فإنّنا الآن نسير في الله.

بيد أنّ كلّ هذا الأمر يتهافت عند تيريزا حين تعتبر أنّها «تشكّ كثيرًا في أنّ النفوس التي تتمتّع أحيانًا تمتُّعًا حقيقيًّا بالأمور السماويّة تعيش حرّة بصورة أو بأخرى عن مشاغل الدنيا»(١). إنّها عودة إلى الطبيعة الناسوتيّة، وأنّى لنا أن ننكر ذلك والخلق هكذا نعمة من نعم الله، وما الجذب إلاّ ومضات تلطيفيّة لعدم الاستغراق بالناسوت كلّيًّا. إنّه إيقاعٌ منتظم، اللاهوت فيه يضبط الناسوت وينظّم خطاه، بحيث يكون الفناء ناسوتيًّا والظهور لاهوتيًّا.

هذا ما جهدت تيريزا لأجل إيضاحه عند حديثها في المنازل الخامسة والسادسة والسابعة عن حالات الاتّحاد والانخطاف والتي تمثّل ذروة التجربة الروحيّة بعد تغطّيها معراج المنازل السابقة. إنّه انتقال من جهد الفناء الناسوتيّ إلى المنح الإلهيّة مثل ما كان يحدث لبولس الرسول من مشاهدات.

لقد بدأت في المنازل الخامسة الحديث عن مرحلة جديدة هي مرحلة النعم الإلهيّة بعد زوال القوى الجسديّة وموت العقل، بحيث تتبدّى الحقائق وينكشف حضور الله فينا. إنّه النوع الأوّل من الاتّحاد وكأنّ هناك أنواعًا أخرى. بنعم تجيب تيريزا، إنّها تترقّى في تجاربها ومنازلها حتّى يُدخلها الله حيث يريد وحيث يدخل هو أيضًا إلى وسط نفسها. إنّه شبيه بدخول المسيح على رسله حين قال السلام لكم وكخروجه من القبر دون أن يرفع الحجر كما تقول تيريزا. لا ناسوت بعد الآن. لقد دخلنا مرحلة الطبيعة اللاهوتيّة. هذا الدخول ليس دخولاً ولا حضورًا شهوديًّا، أنّه ليس برؤيا بل هو «يقين يرسخ في النفس»(٢). أنّه اتّحاد وجوديّ كما هو مرمز في الناسوت وماهويّ كما هو ظاهر في اللاهوت. إنّه من صلب الإيمان وليس من معطيات المدارك.

(١) تيريزا الأفيليّة، كتاب المنازل، ترجمة أنطوان خاطر، الرهبانيّة الكرمليّة في لبنان، م ٦ ـ ١ ـ ٢ ـ رمزنا كتاب المنازل بحرف م، ووضعنا الحاشية على أساس رقم المنازل ورقم الفصل والمقطع، فتصبح: م.... ف.... مقطع..... أمّا كتاب السيرة فقد ذكرناه على الوجه التالي: السيرة، فصل...، مقطع...

(٢) م ٥ ـ ١ ـ ١٠.

ويرتقي بنا نوع آخر من الاتّحاد: إتحاد إرادتنا بإرادة الله والذي هو أعلى منزلة من الاتّحاد الأوّل الذي ذكرنا. إنّه اتّحاد قائم على مطابقة الإرادتين إحداهما الأخرى دون متع وملذّات. وفي هذا الاتّحاد يبذل الإنسان جهدًا إراديًا للوصول إليه وهو ما تشتهيه تيريزا وتعتبره الأفضل والأكثر أمانًا.

بيد أنّ تمييزها بين هذين النوعَين من الاتّحاد مردُّه برأينا إلى خشيتها من أن يؤدّي النوع الأوّل من الاتّحاد إلى أن ننتظر هذه المنّة من الله دون جهد من جانبنا. إنّ التقاء جهدنا مع نعم الله هو الذي يُؤدّي إلى الاتّحاد المُرتجى. إنّه جهد الناسوت لكي يفنى عن هذا العالم ليعود ويظهر في اللاهوت. إنّ طريق الألوهيّة يجب أن يتمظهر في أعمال صالحة (المحبّة) ترفد الجانب الإلهيّ الكامن فينا ضمنيًّا، وتسعى عبر هذا الجهد الدؤوب إلى أن تتماثل مع إرادة الله ومن ثمّ الذوبان فيها.

أن تكون في ناسوتك إنّما هو أن تكون كالمسيح أو أن تتمثّل تجربة المسيح. وإنّه يلزمنا أن نخالط ونفكّر ونرافق الذين صنعوا بطولات في سبيل الله وهم يملكون الجسد. فكم بالحريّ يجدر أن لا نبتعد عن قصد عن خيرنا كلّه وعن دوائنا الذي هو ناسوت سيّدنا يسوع المسيح»[1].

إنّ حالة الاتّحاد بالآب عبر تمثُّل تجربة الابن ليست دائمة الاستمرار في مرحلة من مراحلها، وإلاّ فقدنا معها مفاعيل التجربة وأسرار الآم المسيح. فمتى اتّحدنا مرّة نعود إلى غربتنا الناسوتيّة متسلّحين بفعل إرادة لأنّ نتمثّل مفاعيل هذا الاتّحاد في أعمالنا.

أمّا الانخطاف ومفاعيله فيبدو أنّه حال لاهوتيّة لا دخل للناسوت فيها. إنّه ارتفاع، كما تقول، فيه تحليق وانجذاب للروح فقط.

هل قاربت تيريزا في انخطافاتها حالات السكر والثمل والشطح عند عرفاء المسلمين؟

في تمييزها بين الاتّحاد والانخطاف دلالات عميقة لا تبدو في كلامها

(١) م ٦ - ٧ - ٦.

المعلن ولكنّها خفيّة وربّما هي ما كانت قد نُصحت بعدم التصريح بها لئلاّ تدفع ثمن ذلك غاليًا. أن تُحمَل وأن لا تعرف إلى أين، أن يبرد جسدك وتنقص حرارته وتفقد طبيعتك الوجوديّة بحيث لا تقدر على المقاومة، أمور غير اعتياديّة. إنّها أقوى ممّا يحدث معها في الحالات الروحيّة. هل حاولت تيريزا هنا أن تتخطّى الوسيط وتصبح هي المثال لتفنى كلّيّة عن ناسوتها؟

لقد ضبطها مرشدوها وضبطت هي نفسها وعادت لتتحدّث عن هذه الحالة كما تحدّثت عن الانخطاف والاتّحاد ألاّ إنّها لم تستطع إلاّ أن تميّز بينهما. فتمثّلت الانخطاف بالطيران الروحيّ وينابيع الماء والشمس وأشعّتها وتحدّثت في مفاعيل كلّ ذلك تلميحًا لا تصريحًا. هناك أمور كثيرة لا يمكن فهمها ولا تجرؤ تيريزا نفسها على شرحها خصوصًا عندما حاولت أن تميّز بين النفس والروح، وسنرى ذلك «هنالك إذا صنع الربّ معنا نعمة، فنقلنا برحمته إلى حيث تُفهم هذه الأسرار».

هل مع القران الروحيّ نختتم المسألة العرفانيّة بأبرز تجلّياتها؟ ربّما كان الأمر كذلك وربّما كان أبعد من ذلك لأنّه أن تصير والإله روحًا واحدًا وأن تتّحد الروح بالروح يعني أكثر بكثير ممّا يفصح عنه ظاهر الكلام.

٣ ـ المقاربة الثالثة: الدلالات المعرفيّة

العقل والقلب، كما النفس والروح، هي أدوات المعرفة المتداولة عند أهل العرفان. وقد تقول الفكر الذي هو صورة انعكاسيّة للعقل على صفحة النفس، كما أنّ الإشراق هو من حفريّات الروح في القلب. وعلم المحبّة عند تيريزا ليس من دفتر العقل، بل بدايته التأمّل والصلاة ونهايته القران الروحيّ.

والدلالات المعرفيّة عند تيريزا الأفيليّة يمكن استنباطها من حديثها عن طرق المعرفة التي أوصلتها إلى ذلك اليقين الذي يرسخ في النفس والذي وحده الله قادر على أن يضعه فينا. إنّها دلالات، اللاهوت فيها يكشف الناسوت وليس العكس صحيحًا. فحالات الانخطاف والاتّحاد هي التي تُعيننا في النهاية على فهم وتمثّل الطبيعة الناسوتيّة في المسيح.

أ ـ في التأمُّل

لن نفصل حالات التأمُّل وطبيعة الصلاة عند تيريزا بل سنكتفي بأخذها نقيضًا للاستدلال العقليّ في السعي إلى المعرفة الحقّ وتمثُّل السيِّد المسيح. والتأمّل يساعد النفس على التقدُّم في الحبّ وعلى تمثُّل الإله في «مشاهدة الحقل أو الماء أو الزهر حيث كانت رؤيتها تذكّرني بالخالق»[1]. صحيح أنّها أمور حسِّيَّة وأنّ أعمال العقل والتجريد الذهنيّ فيها قد يوصلنا إلى فهم ما نريد، إلاّ أنّ طريقتها في تأمُّل كلّ هذا كانت تقرِّبها من تمثّل السيِّد المسيح بداخلها لا بفكرها. فالأفكار كثيرًا ما تقُضُّ المضاجع، وكثيرًا ما لم تستطع تيريزا تمثُّل المسيح في ذهنها بخلاف الآخرين. كانت تريد أن تكون بجانبه وأن يقبلها بقربه وأن يُمثِّل بها الربّ كلّ ذلك بطريقة أو بأخرى. ليس ذلك برؤيا، بل بما تسمِّيه «لاهوتًا صوفيًّا» حيث يعجز العقل عن الإدراك «لأنّ الله يريده أن يفهم أنّه لا يفهم شيئًا ممّا يصوِّره له عزّ وجلّ»[2].

وعماد التأمُّل هو الحبّ وليس التفكُّر، وكلّ ما يدفعنا إلى أن نحبّ أكثر فلنفعله. ومَن هو أجدر بالمحبّة أكثر من محبّة السيِّد المسيح في آلامه ودموعه. فلنتمثّل ذواتنا في حضرته دون أن نجهد العقل. وينبغي أن نترك النفس تنعم باستراحتها في أثناء تأمُّل السكينة وليترك العلم جانبًا وكذلك الإرادة والعقل. واستيلاء الله على الإرادة والعقل هو الذي يقودنا إلى الاتّحاد الذي نرجو وإلى العرفان الذي نتوق حين تقول: «يا إلهي ترى متى تتجمَّع نفسي كلّها لتسبيحك ولا تكون ممزّقة أشلاء عاجزة كما هي»[3]. ومَن يسلك طريق التأمُّل يصل إلى الله لا محالة، فيسرع الله بفيض نعمه عليه ويرفعه إليه، فلا يرفعنّ أحدٌ نفسه. وهنا تتداخل الديناميَّة الباطنيَّة عند تيريزا مع الإشراق الإلهيّ الذي هو الدليل على حصول اليقين. فالتأمُّل يقودنا إلى المشاهدة، والتي علامتها

(١) تيريزا الأفيليَّة ـ كتاب السيرة، ترجمة أنطوان خاطر، الرهبانيَّة الكرمليَّة في لبنان، ١٩٩١، ف ٩ ـ ٥.

(٢) المصدر نفسه، السيرة، ف ١٠ ـ ١.

(٣) المصدر نفسه، السيرة، ف ١٧ ـ ٥.

الأكيدة «انطباع الحقيقة وتكشّف حضور الله»(١) هـ يسبه ـلاهوت فقط. ولا ندري كيف، ومَن لم يكن له هذا اليقين لا تكون سـه متّحدة كلّها بالله. فالعقل عاجز عن الفهم ولا يبذل جهدًا في سبيل الفهم لأنّ الله هو مَن يفعل ذلك.

ب ـ التأمّلات العقليّة: المسرّات والملذّات

هل يعني ذلك أنّ هناك دلالات عقليّة توصلنا إلى اليقين أيضًا؟

التفكّر عند تيريزا ليس معناه التعقّل، بل التأمّل حيث «إنّ الباب الذي تدخل به إلى هذا القصر على ما أستطيع أن أفهم إنّما هو التأمّل والتفكّر ولا أقصد الصلاة العقليّة أكثر من اللفظيّة. فإن تكن صلاة يجب أن يصحبها التفكّر»(٢). وما القصر ومنازله سوى رمزيّة لخفريّات المعرفة التأمّليّة، ابتداء بتطهير النفوس من الشوائب والعوائق انتهاء بالقران الروحيّ الصافي. إنّ مسألة المعرفة عند تيريزا تتخطّى أن نكون مردّدين لِما تعلّمناه تقليدًا وأن نكون مستغرقين في أمور وشوائب كثيرة ونحن نمارس فعل التأمّل. بل علينا أن ننسلخ عن كلّ هذه الأمور لتصفى نفوسنا وتتفجّر فيها الينابيع متدرجة من الينبوع الأكبر الذي هو الله.

ويقتصر دور العقل في المنازل الثانية على أن يُبيّن «للنفس انخداعها الشيطانيّ حيث الإيمان وحده هو الذي يعلّمها ما يترتّب عليها. أمّا في المنازل الرابعة فتبدأ مرحلة الحبّ ويقف التفكير بمعنى التعقّل، وتصبح منشغلة بالله مختلية معه وأرى العقل من ناحية أخرى مبلبلاً فيأخذني البله»(٣).

ودلالات هذه المرحلة هي المسرّات والملذّات والفرق بينهما. أمّا المسرّات فهي التي تُصل وتحصل بالتأمّلات العقليّة وهي تابعة لطبيعتنا الناسوتيّة الجسديّة ومتساعدة من الله. إنّها واقعة في عالم الأعيان، حيث كثيرًا ما نُسَرّ

(١) المنازل، م ٥ ـ ١ ـ ٩.
(٢) م ١ ـ ١ ـ ٧.
(٣) المنازل م ٤ ـ ١ ـ ٨.

لحصولنا على ثروة أو للقائنا حبيبًا أو أن نوفّق في مسألة ذات شأن. هذه الدلالات تبدأ فينا وتنتهي في الله، إنّه معراج الصعود نحو الذات الإلهيّة.

أمّا الملّذات فهي «تبدأ في الله وتدركها الطبيعة... وأنا أدرك في ظنّي أنّ هناك فرقًا أكيدًا (بينها وبين المسرّات) لكن معرفتي مقصّرة عن إفهامي فليُفهم الربّ بالإفهام»[١]. هذه هي دلالات اليقين حيث ينشرح القلب بعكس المسرّات التي تُحدِثُ الانقباض. هنا إذن يبدو التقابل والتضاد بين:

مسرّات ← تأمّل عقليّ (ناسوت)

اللذّات ← إنشراح القلب - حبّ (لاهوت)

فالتأمّل العقليّ يعني أنّنا لا نزال في المنازل التي يطغى فيها الناسوت وتحدث فيها الانقباضات لأنّها «تعمل دائمًا بالعقل همّها التفكّر بالعقل والصلاة العقليّة»[٢]. أمّا الحبّ فهو طريق الملذّات حيث لا نكثر التفكير بل علينا أن نُحبّ كثيرًا «فأيّ شيء يُمْكِنُ أكثر ما يحثُّكُنّ على الحبّ فإيّاه افعلن... ليس الحبّ في تذوّق أكبر لذّة بل في أوطد تصميم على أن نرغب في إرضاء الله»[٣].

الحبّ ← الانشراح ← الملذّات ← اليقين

وبين المسرّات (تأمّلات عقليّة) والملذّات (تأمّلات السكينة) فروقات، كالفرق بين امتلاء حوضين بطريقتين مختلفين. الأوّل بواسطة مياه آتية من مكان بعيد، والثاني تنفجر من داخله المياه. الأوّل هو ما يرمز إليه بالمسرّات التي تحصل بالصلاة العقليّة من خارج وبواسطة الأفكار وجهد العقل. أمّا الثاني فهو ما يرمز إليه بالسكينة والهدوء والعذوبة من أقصى أعماق ذواتنا حتّى يحصل انشراح القلب.

وهكذا تربط تيريزا بين حصول اليقين بالحبّ وبين مغالبة الدنيا وتنقية القلب. فمَن امتلأ قلبه بالحبّ الحقيقيّ شعر أنّ ملذّاته ليست من هذه الأرض

(١) م ٤ - ١ - ٤.

(٢) م ٤ - ١ - ٦.

(٣) م ٤ - ١ - ٧.

وإنّما هي من حيث غير هذه الحياة، حيث قوّة الإرادة المتّحدة بإرادة الله وحيث الحبّ المستغرق فيه بالكلّيّة. فالنفس «لا تستطيع أن تدرك المدن التي يؤتيها الربّ والحبّ الذي به يغريها إلى ذاته أكثر فأكثر»[1].

إنّ امتلاء القلب بالمعرفة وقف على امتلائه بالحبّ. ومع الحبّ يحصل الاتّحاد والوصول حيث نصبح حاضرين قريبين متحقّقين في ذواتنا. فلا حاجة للبحث عن الله بطريق الاستدلال خارج ذواتنا لأنّ الشعور بالاتّحاد معه يُغني عن كلّ شيء. ولقد جهدت تيريزا نفسها للتمييز بين المعرفة الحاصلة عن طريق العقل وتلك الحاصلة بالحبّ اللازم عن طريق التأمّل (تأمّل السكينة ـ تأمّل الاختلاء) فأوردت على ذلك الحجج التالية:

أ ـ إنّ مَن يُقلُّ التفكير والعمل في هذا الشغل الروحيّ ينال نتيجة أفضل.

ب ـ إنّ العمل الباطنيّ أكثر عذوبة وأسهل من الجهد الذي يبذله العقل والذي يلزم عنه مشقّة كبيرة.

ج ـ يجب أن لا نهتمّ بأن لا نفكّر، لأنّ ذلك قد يوقظ فيها التفكير في أشياء كثيرة.

د ـ يجب أن ننسى الذات والمسرّات والملذّات وأن لا ندع العقل يتحرّك لأنّه «عندما يريد جلاله أن يتوقّف العقل فهو يشغله بطريقة أخرى ويضفي على معرفتنا نورًا يفوق كثيرًا ما نستطيع نحن بلوغه»[2].

وتعود تيريزا في المنازل السادسة إلى الكلام عن الحديث إلى النفس وكيف يكون برؤى عقليّة، وهو ما يجب أن تميّزه في الحقيقة عن التأمّل كطريق للوصول إلى اليقين. فالرؤى العقليّة غالبًا ما ذكرتها تيريزا لمقابلتها بالرؤى الخياليّة الخادعة. وهي لا تعرف سببًا لتسميتها بالرؤى العقليّة خصوصًا بعد أن اعتبرت أنّ العقل أداة غير صالحة للوصول إلى اليقين. لكن أن يحدّثنا الله عن طريق الرؤى العقليّة بحيث «تشعر بربّنا يسوع المسيح بقربها ولو لم ترَه بعين الجسد ولا بعين النفس»[3] فأمرٌ عانت منه تيريزا كثيرًا لأنّها ما سمعت قطّ

(١) م ٤ ـ ٢ ـ ٨

(٢) م ٤ ـ ٣ ـ ٦.

(٣) م ٦ ـ ٨ ـ ٢.

برؤى عقليّة. لكن خوفها هذا زال سريعًا عندما كان يخاطبها بقوله «لا تخف. أنا هو»(١).

وكان لهذه الكلمات قوّة عظيمة لا تستطيع معها عندئذٍ أن تشكّ، فرأت في ذلك عونًا كبيرًا كي تعيش وهي تتذكّر الله باستمرار. هذا ما يُبيّن لنا أنّ الرؤى العقليّة تحدث ونحن لسنا في حال الانخطاف والاتّحاد بل في حال الوجود الناسوتيّ، لأنّ «في كلّ مرّة كان يودّ أن يتعاطى مع جلاله في التأمّل بل وخارج التأمّل يحسّه قريبًا جدًّا فلا يسعه إلاّ أن يسمعه... كان يشعر به إلى الجهة اليمنى لكن ليس بهذه الحواسّ التي نستطيع أن نشعر بها أنّ هناك شخصًا قريبًا منّا بل بطريقة ألطف لا يستطاع وصفها لكنّها أكيدة»(٢).

ج - تأمّل الاتّحاد

الموت عن العالم هو موت لذيذ به تتحرّر النفوس من جميع الشوائب القائمة بها وهي متّحدة بالجسد، لتنطلق من ثمّ إلى الاتّحاد بالله. والاتّحاد بالله دلالته أنّ النفس عندما تنطبع فيها هذه الحقيقة الثابتة لا تشكّ أبدًا «بحال في أنّها وجدت في الله. وإنّ الله وجد فيها. وتنطبع هذه الحقيقة فيها انطباعًا ثابتًا، بحيث لو مضت سنوات من بعد ولم يؤتها الله هذه المنّة فإنّها لا تنساها ولا تشكّ في أنّ الله وجد فيها»(٣). هذه هي المعياريّة الأساسيّة لليقين المطلق عند تيريزا. إنّها معياريّة ذاتيّة لا دخل لعالم الأعيان فيها، متلازمة جدليًّا مع دلالتها الأساسيّة وهي حضور الله ذاتيًّا في ذاتنا. وحضورنا نحن في ذات الله. هذه العلاقة الجدليّة بين ذاتنا وذات الله لازمة عن يقين يرسخ في النفس والله وحده قادر على أن يضعه فيه. واليقين المطلق هو يقين لاهوتيّ ولا ينكشف من خلال الناسوت «فلا تخدعنّ نفسك هذا الحضور اليقين بصورة جسديّة كحضور جسد يسوع المسيح ربّنا في القربان الأقدس مع أنّنا لا نراه لأنّه ليس هنا بصورة الجسد بل باللاهوت فقط»(٤). الناسوت في المسيح ليس دلالة اليقين، لكنّه

---

(١) م ٦ - ٨ - ٣

(٢) م ٦ - ١ - ٣

(٣) م ٥ - ١ - ٩

(٤) م ٥ - ١ - ١١

مرحلة من مراحل تخطّي المنازل. واللاهوت وحده هو الروح القدس الذي يحرّك فينا حرارة المعرفة عن طريق التأمّلات، إلى أن يصير هو منزلنا «كما يحصل في تأمّل الاتّحاد، وأن نقوم، نحن، بصنع هذا المنزل. كأنّني أودّ القول إنّنا نستطيع أن ننزع شيئًا من الله أو نزيد عليه، لأنّني أقول إنّه، هو المنزل، وإنّنا نستطيع صنعه لنُقيم فيه. وكيف لا نستطيع! لا أن ننزع من الله شيئًا أو نزيد عليه، بل أن ننزع منّا ونزيده»(١).

ويقظة النفس في هذا المنزل وانطباع اليقين في باطنها يعني أنّ كلّ ذلك هو من الله والدلائل عليه هي:

أ ـ دليل قوّة الفعل، حيث إنّ الله يخاطب النفس ويكفي أن يقول لها «أنا هو. لا تخافي»(٢)، حتّى يتبدّد خوفها وترى أنّ لا أحد يستطيع أن يجعلها تعتقد خلاف ما سمعت.

ب ـ سكون النفس واطمئنانها.

ج ـ إنطباع هذه الأحاديث الإلهيّة في الذاكرة ورسوخها رسوخ اليقين الذي لا يُدحض.

أمّا دلالة الدلالات جميعًا فهي دلالة الخطف والانخطاف حيث يتيه العقل وتُسلَبُ الإرادة «وليغيبَ بالاجتذابات، الانجذابات الخفيّة... حيث إنّ النفس ما كانت من قبل أبدًا متيقّظة هذا التيقّظ لأمور الله ولا امتلكت نورًا ساطعًا ومعرفة كبيرة عن جلاله بهذا القدر»(٣).

فالانخطاف والانجذاب هو الاستغراق الكامل في الله. إنّهما الطيران الروحي، حيث الروح تخرج حقًّا من الجسد «كما أنّ الشمس وأشعّتها واحد وهي من مكانها تستطيع بقوّة الحرارة التي تأتيها من شمس العدل الحقيقيّة أن تخرج من ذاتها»(٤). أن تفترق الروح فالروح هذه هي ثمرة اليقين

---

(١) م ٥ - ٣ - ٤

(٢) م ٦ - ٣ - ٤

(٣) م ٦ - ٤ - ٣

(٤) م ٦ - ٥ - ٩

الخاتمة

كيف يمكن لنا أن نقوّم هذه التجربة الروحيّة؟

هل يقتصر الأمر على أنّها مداخلة تعليميّة تهدف فيها تهدف إليه رسم نموذج لما يجب أن تكون عليه حياة الإنسان عامّة وسلوك الرهبان والراهبات خاصّة؟ هل هو إعادة رسم نموذج للفكر والسلوك يفي بحاجات أولئك الذين يحاولون بناء قِيَم روحيّة وأخلاقيّة مستمدّة من تعاليم المسيحيّة؟ قد يكون في ذلك بعض من الحقيقة. إلاّ أنّ الجانب الأهمّ يكمن في ما لم تخفه تيريزا نفسها حين قالت إنّ مفاعيل الانخطاف والقران الروحيّ أوصلتها إلى ما قاله لها الإله «لا تخافي. أنا هو» وشرارة اليقين التي انقدحت نورًا أهب روحها فاندمجت الروح بالروح، لا ندري إذا ما نقلتها من حال المخاطبة الإلهيّة إلى حال أخرى لم تفصح عنها تيريزا لاعتبارات عديدة.